رواية

ديون مؤجلة

تأليف

آزال العباسي

قصة عن الوفاء لا تنسى

الزمن لا ينسى... والديون لا تسقط بالتجاهل

إهداء

إلى أمي...

إلى كل يدٍ تعبت لتمنح أبناءها حياةً كريمة، وكل عينٍ سهرت لتطمئن عليهم.

إلى الذين عرفوا قيمة الوفاء، وأدركوا أن أعظم الديون ليست تلك التي تُكتب في السجلات، بل تلك التي تُحفر في الضمائر...

إلى كل من قرأ هذه الصفحات بقلبه قبل عينيه، فوجد فيها شيئًا من نفسه، أو من أمه، أو من وجعٍ مرَّ به يومًا...

أهدي هذه الرواية.

فإن لامست قلبًا غفل عن فضل أمّه، أو أيقظت ضميرًا نائمًا، أو أعادت إلى إنسانٍ شيئًا من الوفاء، فقد بلغت غايتها.

وما هذه الحكاية إلا تذكيرٌ بأن الزمن لا ينسى، وأن المعروف يبقى دينًا في الأعناق، حتى وإن تأخر الوفاء.

الفصل الأول

ديونٌ مؤجَّلة

هناك ديونٌ لا تُسدَّد بالمال، بل بالوفاء. ودموعٌ قد تجف من العيون، لكنها تبقى محفورةً في ذاكرة الزمن، تنتظر يومًا يعود فيه صداها إلى من كان سببًا في انهمارها. فالزمن لا ينسى، والحياة كثيرًا ما تعيد الإنسان إلى الموضع نفسه الذي ترك فيه قلبًا مكسورًا، ليذوق من الكأس التي سقاها لغيره.

في أحد الأحياء العتيقة، كان يقف بيتٌ صغير أنهكت جدرانه السنوات، وتشقق طلاؤه حتى بدا كشيخٍ أثقلته الأيام. لم يكن يملك من مظاهر الرفاهية شيئًا، لكنه كان عامرًا بالحب، يدفئ ساكنيه بما عجزت عنه القصور.

في ذلك البيت عاشت مريم مع طفلها الوحيد عدنان.

كانت امرأةً أنهكها الكفاح قبل أوانه، لكنها لم تسمح للتعب أن يهزم ابتسامتها. فمنذ رحيل زوجها، أصبحت الأب والأم معًا، تحمل همَّ الغد على كتفيها، وتقاوم قسوة الحياة بقلبٍ لا يعرف الاستسلام.

كانت تعمل منظفةً في البيوت، تنتقل من منزلٍ إلى آخر، تمسح الأرضيات، وتغسل الأواني، وترتب الغرف، بينما يداها تتشققان يومًا بعد يوم من أثر الماء والمنظفات. ومع ذلك، لم تكن تشكو لأحد، بل كانت تعود كل مساء حاملةً رغيفًا دافئًا وابتسامةً أدفأ، لتقنع صغيرها بأن الدنيا ما زالت بخير.

كبر عدنان قليلًا، وحين بلغ السادسة من عمره، وقفت مريم أمام إحدى المدارس الخاصة تحمل بيدها ملف تسجيله، بينما كان قلبها يرتجف خوفًا من السؤال الذي تعرف جوابه مسبقًا.

قال الموظف بعد أن تصفح الأوراق:

- بقيت رسوم الدراسة.

خفضت رأسها في صمت، ثم قالت بصوتٍ امتزج فيه الخجل بالأمل:

- لا أملك المال... ولكن إن احتجتم إلى عاملة نظافة، فسأعمل في المدرسة مقابل تعليم ابني.

ساد الصمت للحظات، قبل أن توافق الإدارة على طلبها.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت رحلة جديدة من التضحية.

كانت تصل قبل شروق الشمس، تنظف الفصول، وتمسح الممرات، وتغسل السلالم، ثم تختبئ بعيدًا كلما بدأ الطلاب بالدخول.

وكان عدنان يمر أمامها كل صباح مرتديًا زيه المدرسي النظيف، لا يعلم أن المرأة التي تنحني لتنظيف الأرض هي أمه، التي اختارت أن تخفي تعبها حتى لا يشعر بالخجل أمام زملائه.

كانت تراقبه من بعيد، تبتسم كلما رأته يضحك، وتنسى في تلك اللحظة آلام ظهرها وتشقق يديها. كان نجاحه بالنسبة إليها أعظم مكافأة، وكانت تؤمن أن كل قطرة عرق تسقط منها اليوم، ستتحول غدًا إلى مستقبلٍ يليق بابنها.

وفي المساء، كانت تعود معه إلى البيت، تسأله عن دروسه، وتستمع إلى أحلامه الصغيرة، بينما تخفي عنه أنها لم تتناول سوى كسرة خبز طوال النهار، حتى توفر ثمن الكتب والزي المدرسي.

كانت تحلم بيومٍ تراه فيه رجلًا ناجحًا، يرفع رأسها بين الناس، ولم تكن تنتظر منه ثروةً ولا هدية، بل كانت تكتفي بأملٍ صغير يسكن قلب كل أم:

أن يبقى ابنها وفيًّا لها مهما تبدلت الأيام.

لكنها لم تكن تعلم...

أن الحياة كانت تُخفي لها امتحانًا أقسى من الفقر، وأن الديون التي دفعتها من عمرها وقلبها، لن يحين موعد سدادها إلا بعد سنوات طويلة، حين يدور الزمان دورته الكاملة.

الفصل الثاني

العروس التي دخلت ومعها الشتاء

مضت الأعوام مسرعة، كما تمضي السنون حين تكون مثقلة بالتعب.

كبر عدنان، واجتهد في دراسته حتى تخرج في الجامعة بتفوق، ثم حصل على وظيفة مرموقة غيّرت مجرى حياته. ولم تمضِ سنوات قليلة حتى أصبح يملك منزلًا واسعًا في أحد الأحياء الراقية، وسيارة فاخرة، ومكانةً اجتماعية كان يحلم بها منذ طفولته.

أما مريم، فلم يتغير منها شيء.

كانت لا تزال تستيقظ قبل الفجر، تعد الفطور بيديها اللتين أرهقتهما السنون، وتنتظر أن ترى ابنها يخرج إلى عمله فتدعو له بصمت:

وكان عدنان يحب أمه، لكنه بدأ ينشغل عنها شيئًا فشيئًا. فالنجاح يغيّر حياة الإنسان، وأحيانًا يغيّر أولوياته أيضًا.

وذات يوم عاد إلى البيت، وعلى وجهه ابتسامة لم ترها أمه منذ زمن.

قال وهو يجلس إلى جوارها:

- أمي... أريد أن أخبرك بشيء.

ابتسمت مريم وربتت على كتفه.

- خيرًا يا بني.

قال بخجل:

- أريد أن أتزوج.

تهللت أساريرها، واغرورقت عيناها بالدموع.

- الحمد لله... كنت أدعو الله أن أراك عريسًا قبل أن أموت.

قبّل رأسها وقال:

- رضاك أهم عندي من الدنيا كلها.

ابتسمت، لكنها لم تكن تعلم أن الدنيا تخبئ لها ما هو أبعد من الخيال.

تم الزواج بعد أشهر قليلة.

كانت العروس تُدعى لمى.

نشأت في بيتٍ ثري، اعتادت فيه أن تُلبّى جميع طلباتها قبل أن تنطق بها. وكانت ترى أن قيمة الإنسان تُقاس بما يملك، لا بما يحمل في قلبه.

لم تعرف يومًا معنى التعب، ولم تذق مرارة الحاجة، لذلك لم تستطع أن ترى في مريم تلك الأم التي صنعت مستقبل ابنها بدموعها وعرقها.

كل ما كانت تراه...

امرأة بسيطة، ترتدي ثيابًا متواضعة، وتتحدث بهدوء، ولا تشبه المجتمع الذي أصبحت تنتمي إليه.

ومنذ اللحظة الأولى، شعرت أن وجود مريم في المنزل ينتقص من الصورة التي رسمتها لحياتها الجديدة.

في صباح اليوم الأول بعد الزفاف، كانت أشعة الشمس تتسلل بهدوء عبر نوافذ المنزل، بينما كانت مريم ما تزال نائمة بعد ليلة طويلة من التعب في تجهيز حفل الزفاف.

وفجأة...

دُفع باب غرفتها بعنف، حتى ارتطم بالجدار.

فتحت عينيها مذعورة، واعتدلت في جلستها.

وقفت لمى عند الباب، تنظر إليها ببرود.

قالت مريم وهي تضع يدها على صدرها:

- خير يا ابنتي؟ أفزعتِني.

ابتسمت لمى ابتسامةً باردة وقالت:

- اعتادي على ذلك... فمن اليوم ستتغير أشياء كثيرة في هذا البيت.

ثم استدارت وغادرت دون أن تضيف كلمة أخرى.

كانت كلماتها قصيرة...

لكنها تركت في قلب مريم شعورًا غامضًا بالخوف.

بعد دقائق، دخل عدنان إلى غرفة زوجته.

قال مستغربًا:

- ماذا كنتِ تقصدين بكلامك لأمي؟

أغلقت لمى الباب، وجلست على طرف السرير.

قالت بهدوء:

- غرفتكما واسعة وجميلة... أما غرفتنا فهي أصغر.

نظر إليها دون أن يفهم.

- وماذا يعني ذلك؟

قالت وكأن الأمر في غاية البساطة:

- أريد غرفة والدتك.

ساد صمت ثقيل.

قال عدنان ببطء:

- وأمي... أين ستذهب؟

أجابت بلا تردد:

- هناك غرفة صغيرة تحت الدرج... تكفيها.

رفع رأسه إليها غير مصدق.

- تلك ليست غرفة... إنها مخزن.

قالت ببرود:

- لكنها تناسبها أكثر.

ثم نظرت إليه نظرة حادة.

- إن كنت تحبني... فستفعل.

بقي عدنان صامتًا، تتجاذبه مشاعر متناقضة.

وفي تلك اللحظة...

كانت مريم تقف في الممر، بعدما جاءت لتسأل إن كانا يرغبان في تناول الإفطار.

وصلت كلمات الحوار إلى أذنيها كاملة.

شعرت وكأن شيئًا انكسر داخلها.

لم تبكِ...

ولم تغضب...

بل عادت بصمت إلى غرفتها.

نظرت حولها طويلًا.

هنا كانت تحفظ صور ابنها.

وهنا كانت تقضي لياليها تدعو له.

وهنا كانت تخبئ صندوقًا صغيرًا يضم أول حذاء ارتداه، وأول شهادة تفوق حصل عليها.

اقتربت من الخزانة، وأخذت تجمع أغراضها بهدوء.

وحين انتهت...

حملت صندوق الذكريات بيديها، واتجهت إلى الغرفة الصغيرة تحت الدرج.

كانت ضيقة، باردة، لا يدخلها ضوء الشمس إلا خيطًا نحيلًا من نافذة صغيرة.

وضعت أغراضها فيها، ثم مسحت دمعةً تسللت إلى خدها.

وبينما كانت ترتب فراشها المتواضع، دخل عدنان إليها مسرعًا.

توقف مذهولًا.

- أمي... ماذا تفعلين؟

التفتت إليه، وابتسمت ابتسامة متعبة.

- أعجبتني هذه الغرفة يا بني... إنها أهدأ.

نظر إليها طويلًا.

كان يعلم أنها تكذب.

وكانت تعلم أنه يعلم.

لكن كلاهما اختار الصمت.

خرج عدنان وهو يشعر بثقلٍ غريب في صدره.

أما مريم...

فجلست على فراشها الجديد، وأسندت ظهرها إلى الجدار البارد.

ثم همست لنفسها:

- "اللهم لا تجعلني سببًا في خلافٍ بينهما... حتى لو كان الثمن هو قلبي."

وفي الخارج...

كانت لمى تنظر إلى الباب المغلق، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة رضا.

أما الزمن...

فقد بدأ يكتب أول سطرٍ في الدين الذي سيعود يومًا إلى أصحابه.

الفصل الثالث

حين أصبح البيت سجنًا

لم تكن الأيام الأولى بعد انتقال مريم إلى الغرفة الصغيرة تحت الدرج سوى بدايةٍ لما هو أشد قسوة.

كان المنزل الذي حلمت يومًا أن يكون ملاذها الآمن قد تبدل وجهه، حتى غدت تشعر أنها غريبة بين الجدران التي شهدت أجمل سنوات عمرها.

كانت تستيقظ قبل الجميع، تصلي الفجر، ثم ترفع يديها بالدعاء طويلًا.

لم تكن تدعو لنفسها.

كانت تدعو لابنها، ولزوجته، أن يرزقهما الله السعادة، وأن يؤلف بين قلبيهما.

ثم تنهض لتبدأ يومًا جديدًا من العمل.

في صباح أحد الأيام، خرجت لمى من غرفتها وهي تتلفت في أرجاء المنزل، ثم اتجهت إلى الغرفة الصغيرة تحت الدرج.

طرقت الباب طرقات خفيفة، ثم فتحته دون أن تنتظر الإذن.

وجدت مريم ترتب فراشها المتواضع.

قالت لمى بلهجة آمرة:

- من اليوم، ستتولين جميع أعمال المنزل.

رفعت مريم رأسها وقالت بهدوء:

- لا بأس يا ابنتي... ما دمت أستطيع، فسأقوم بما أقدر عليه.

ابتسمت لمى ابتسامةً ساخرة.

- ولن أستعين بخادمة بعد اليوم، فما دمتِ موجودة فلا حاجة لإنفاق المال.

لم تُجب مريم.

انحنت وأخذت أدوات التنظيف، وكأنها عادت سنوات طويلة إلى الوراء، حين كانت تنظف بيوت الناس لتؤمّن مستقبل ابنها.

لكن الفارق هذه المرة...

أنها كانت تنظف بيت ابنها.

مرّ النهار طويلًا.

كانت تنتقل بين المطبخ وغرفة الجلوس والممرات، تحمل الماء، وتمسح الأرض، وتغسل الأواني، بينما آلام ظهرها تزداد مع كل خطوة.

وعندما عاد عدنان من عمله، ألقى حقيبته وسأل:

- أين أمي؟

ابتسمت لمى وقالت ببرود:

- تقصد العاملة؟ إنها في المطبخ تُحضّر الغداء.

تجمدت ملامح عدنان.

لم تعجبه الكلمة.

لكنه لم يعترض.

اكتفى بالتوجه إلى المطبخ.

كانت مريم تقف أمام الموقد، تحرك الطعام بيدين ترتجفان من الإرهاق.

التفتت عندما سمعت خطواته.

ابتسمت رغم التعب.

قال عدنان:

- أمي... اتركي كل هذا وارتاحي.

وقبل أن تجيب، تدخلت لمى من خلفه:

- ولماذا ترتاح؟ هي معتادة على العمل، ولن يصيبها شيء.

ساد صمت قصير.

ثم قالت مريم بسرعة، خشية أن يتحول الأمر إلى شجار:

- لا تقلق يا بني... أحب أن أقوم بأعمال البيت بنفسي.

نظر إليها عدنان لحظات، ثم قال:

- كما تشائين.

وغادر مع زوجته إلى غرفة الجلوس.

جلست لمى بجواره تشاهد التلفاز، بينما بقيت مريم وحدها تكمل إعداد الطعام.

بعد ساعة...

وضعت الطعام على المائدة.

تذوقت لمى لقمة واحدة، ثم وضعت الملعقة جانبًا وقالت بضيق:

- يبدو أنني لن أعتاد هذا الطعام أبدًا.

نظر عدنان إلى الطبق، ثم قال دون اهتمام:

- لنخرج ونتناول العشاء في أحد المطاعم.

التفتت مريم إليهما.

لم تقل شيئًا.

لكن عينيها امتلأتا بحزنٍ صامت.

أخذت الصحون بهدوء، وعادت بها إلى المطبخ.

هناك...

وقفت وحدها.

وأطلقت تنهيدة طويلة، ثم بدأت تجمع الطعام الذي لم يمسه أحد.

لم تشأ أن تأكل.

فقد فقدت شهيتها منذ زمن.

وقبل أن تغادر لمى المنزل، التفتت إلى مريم وقالت:

- عندما نعود، أريد أن أجد البيت نظيفًا كأنه جديد. لا أريد أن أرى ذرة غبار واحدة.

ثم خرجت مع عدنان.

أما مريم...

فأمسكت بالمكنسة من جديد.

كانت قد أنهكتها ساعات العمل، لكن أحدًا لم يسألها إن كانت متعبة، أو إن كانت تحتاج إلى الراحة.

حلّ الليل.

عاد الزوجان وهما يتبادلان الضحكات.

أما مريم، فكانت قد انتهت من تنظيف كل شيء.

جلست في غرفتها الضيقة، وأسندت رأسها إلى الجدار.

كانت تشعر بوحدة لم تعرفها من قبل.

همست وهي تنظر إلى السقف:

- "يا رب... لم أندم يومًا على تعبٍ بذلته من أجل ابني... لكني أدعوك أن تحفظ قلبه من القسوة، فالقلب إذا اعتاد الجفاء، مات وهو لا يشعر."

ثم أغلقت عينيها.

وفي الخارج...

كان المنزل يغرق في هدوء الليل.

أما القدر...

فكان يواصل نسج خيوط الحكاية، في انتظار اليوم الذي سيدفع فيه كلُّ إنسان ثمن ما زرع بيديه.

الفصل الرابع

بردٌ لا يراه أحد

لم يكن الشتاء قد بلغ ذروته بعد، لكن البرد كان يتسلل إلى الغرفة الصغيرة تحت الدرج قبل أن يطرق أبواب بقية المنزل.

كانت الغرفة أشبه بصندوقٍ ضيق، لا تدخله الشمس إلا دقائق معدودة، ولا يقي ساكنه من برد الليل أو رطوبة الشتاء.

في تلك الليلة، تمددت مريم على فراشها الرقيق، وجذبت البطانية القديمة إلى صدرها. حاولت أن تغفو، لكن جسدها المنهك كان يرتجف من شدة البرد، بينما كانت نوبة سعالٍ متقطعة تمزق سكون الليل.

ورغم الألم...

لم توقظ أحدًا.

كانت تخشى أن تُزعجهم أكثر مما تخشى مرضها.

أشرقت شمس الصباح، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، والمطر يهطل بغزارة، كأن السماء تشارك الأرض حزنها.

استيقظت لمى على صوت المطر، فابتسمت وهي تنظر من النافذة.

قالت لنفسها:

- يا له من صباح جميل... ليت عدنان يأخذ إجازة لنقضي اليوم معًا.

وفي تلك الأثناء، استيقظ عدنان على عجل.

نظر إلى الساعة، ثم قال بقلق:

- تأخرت! أيقظي أمي، وأخبريها أن تُعد الفطور، فقد أحضرت لها بالأمس بدلتي لتكويها.

أومأت لمى برأسها، ثم نزلت إلى الطابق السفلي.

وقفت أمام باب غرفة مريم، ثم دفعته بعنف.

لم يصدر أي صوت.

تقدمت إلى الداخل، فرأت مريم ملقاة على الأرض، وقد بدا وجهها شاحبًا، وأنفاسها متقطعة.

لم يرق قلبها للمشهد.

التقطت كوب الماء الموضوع إلى جوار الفراش، وسكبته فوق رأسها ببرود.

فتحت مريم عينيها بصعوبة.

كانت ترتجف.

قالت لمى بلهجة حادة:

- انهضي! البيت يحتاج إلى تنظيف، وعدنان ينتظر فطوره وبدلته.

حاولت مريم أن تسند نفسها، لكنها لم تستطع.

قالت بصوتٍ واهن:

- يا ابنتي... أشعر بتعب شديد... لا أستطيع الوقوف.

قطبت لمى حاجبيها وقالت باستخفاف:

- كلنا نتعب. لا تتذرعي بالمرض حتى تهربي من العمل.

في تلك اللحظة، سمع عدنان ارتفاع الأصوات، فنزل مسرعًا.

نظر إلى أمه، فهاله منظرها.

اقترب منها وقال بقلق:

- أمي... ماذا بك؟

وقبل أن تجيب، سارعت لمى إلى القول:

- لا شيء، مجرد زكام بسيط. إنها تبالغ كعادتها.

ظل عدنان ينظر إلى وجه أمه.

كانت عيناها حمراوين، وشفاهها ترتجف، وحرارة جسدها تكاد تُرى.

أخرج هاتفه من جيبه وقال:

- سأطلب الطبيب.

لكن لمى أمسكت بيده.

قالت بهدوء مصطنع:

- ولماذا كل هذا؟ سيصف لها بعض المسكنات، وستدفع مبلغًا كبيرًا بلا فائدة. دعها تشرب شيئًا ساخنًا وستتحسن.

تردد عدنان.

ثم أعاد الهاتف إلى جيبه.

التفت إلى أمه وقال:

- ارتاحي قليلًا يا أمي... وسأطمئن عليك عندما أعود.

ابتسمت مريم ابتسامة شاحبة، وقالت:

- لا تقلق يا بني... سأكون بخير.

خرج عدنان إلى عمله...

وكانت تلك الكلمة آخر ما أراد أن يسمعه.

ما إن أغلق الباب، حتى ارتدت لمى حقيبتها.

قالت قبل أن تغادر:

- سأخرج مع صديقاتي، وعندما أعود أريد البيت نظيفًا كما اعتدت.

ثم انصرفت.

بقيت مريم وحدها.

أسندت ظهرها إلى الجدار، وأغمضت عينيها للحظات.

كانت تعلم أن جسدها لم يعد يقوى.

لكنها نهضت رغم ذلك.

غسلت الأواني.

ونظفت الأرض.

ورتبت الغرف.

وكانت تتوقف بين الحين والآخر لتلتقط أنفاسها، بينما ترتفع حرارة جسدها أكثر فأكثر.

في المساء...

عاد عدنان مع زوجته.

كان يحمل أكياس الطعام من أحد المطاعم.

دخل المنزل وهو يضحك، بينما كانت لمى تروي له مواقف طريفة حدثت خلال نزهتها.

أما مريم...

فكانت مستلقية في غرفتها، تكاد لا تقوى على الحركة.

لم يسأل عنها أحد.

ولم يطرق بابها أحد.

جلس الزوجان يتناولان العشاء، ثم أعلنت لمى خبرًا انتظرته طويلًا.

قالت وهي تبتسم:

- لدي مفاجأة.

نظر إليها عدنان.

- ما هي؟

وضعت يده على بطنها وقالت:

- سنرزق بطفل.

اتسعت عينا عدنان فرحًا.

احتضنها، وامتلأ البيت بضحكاتهما.

وفي تلك اللحظة...

كانت مريم في الغرفة الضيقة، تسمع أصوات الفرح من بعيد.

ابتسمت رغم ألمها.

ورفعت يديها إلى السماء.

وقالت بصوتٍ خافت:

- "اللهم اجعله طفلًا صالحًا... ولا تذقه يومًا ما أذقته الحياة لأمه."

لم تدعُ على أحد...

رغم أن قلبها كان مثقلًا بالجراح.

فالأمهات...

حتى وهن مكسورات، لا يعرفن إلا الدعاء.

وفي الخارج...

كان المطر لا يزال يهطل بهدوء.

وكأن السماء كانت تغسل الأرض...

استعدادًا لليوم الذي ستبدأ فيه ديون الزمن أولى دفعاتها.

الفصل الخامس

الرحيل الذي لم يُسمع صوته

مرت الشهور بطيئة على مريم.

كانت الأيام تتشابه، فلا شيء يتغير سوى أن جسدها يزداد ضعفًا، وملامحها تزداد شحوبًا. أما قلبها، فظل كما كان؛ ممتلئًا بحب ابنها، رغم كل ما ذاقه منه من جفاء.

في المقابل، كان البيت يعيش فرحة انتظار المولود الأول.

أصبحت لمى محور اهتمام عدنان، يحيطها بعنايته، ويحرص على ألا ينقصها شيء. وكلما اشتهت طعامًا، خرج ليحضره، وكلما شعرت بتعب، أسرع بها إلى الطبيب.

وكانت مريم تراقب ذلك بصمت.

لم تكن تغار من اهتمامه بزوجته، بل كانت تتمنى في سرها أن يبقى سعيدًا، ولو كان نصيبها من تلك السعادة هو النسيان.

وفي إحدى الليالي...

استيقظ البيت على صرخة لمى.

هرع عدنان إلى غرفتها، فوجدها تتلوى من شدة الألم.

قال وهو يحاول تهدئتها:

- اطمئني... سيارة الإسعاف في الطريق.

خرجت مريم من غرفتها تستند إلى الجدار، وقد أيقظتها الأصوات.

سألت بقلق:

- ماذا حدث يا بني؟

لكن عدنان لم يسمعها، أو لعله سمعها ولم يستطع أن يلتفت إليها.

كان كل اهتمامه منصبًا على زوجته.

وصلت سيارة الإسعاف، وغادر الجميع إلى المستشفى.

وبقي البيت خاليًا...

إلا من مريم.

جلست قرب النافذة طوال الليل.

كانت الأمطار تنهمر في الخارج، بينما أخذت تسبح وتدعو الله أن يحفظهما.

وقبل طلوع الفجر، قامت بترتيب غرفة الطفل، ووضعت فيها ما استطاعت من أغطية وثياب صغيرة كانت قد اشترتها من مدخراتها البسيطة.

كانت تبتسم وهي ترتب السرير الصغير.

وكأنها تنسج أحلامًا جديدة لحفيدٍ لم تره بعد.

مع شروق الشمس...

عاد عدنان يحمل بين ذراعيه طفلًا صغيرًا.

كانت ملامحه هادئة، وعيناه مغلقتين، كأنه قطعة من النور.

قال عدنان وهو يبتسم:

- لقد سميناه... سام.

وقفت مريم بعيدًا، تنظر إليه بشوقٍ يشبه شوق الأرض لأول قطرة مطر.

اقترب منها عدنان وقال بحماس:

- تعالي يا أمي... انظري إلى حفيدك.

تقدمت بخطوات مترددة.

كانت تخشى أن تزعج لمى.

ابتسمت وهي تحدق في وجه الطفل.

همست:

- ما أجمله...

مد عدنان الطفل نحوها وقال:

- احمليه.

ارتجفت يداها من الفرح.

لكن قبل أن تلامس أصابعها جسد الصغير، دوّى صوت لمى في الغرفة:

- لا!

ساد الصمت.

قالت وهي تضم الطفل إلى صدرها:

- لا تلمسيه... أخشى أن تنقلي إليه المرض.

تجمدت مريم في مكانها.

وسحبت يديها ببطء.

لم تقل كلمة.

فقط...

ابتسمت ابتسامة حاولت أن تخفي بها انكسارها.

ثم استدارت وغادرت الغرفة.

جلست في غرفتها تحت الدرج.

كانت تنظر إلى كفيها طويلًا.

همست لنفسها:

- هاتان اليدان حملتا عدنان صغيرًا... وسهرتا عليه الليالي... واليوم لا يُسمح لهما بحمل حفيدي.

ثم انهمرت دموعها بصمت.

في المساء...

قالت لمى عدنان وهي تنظر إلى الطفل:

- سأمنحه الحياة التي كنت أحلم بها دائمًا.

نظر إليها عدنان مبتسمًا.

وأضافت:

- لن يعرف الحرمان، ولن يعيش كما عشت أنت.

خفض عدنان رأسه.

عادت إليه صور طفولته.

تذكر نظرات زملائه حين كانوا يرون أمه تنظف المدرسة.

تذكر سخريتهم من ثيابه القديمة.

وتذكر كم كان يحلم أن يكون ابن رجل ثري.

تنهد طويلًا.

ثم قال:

- نعم... لن أجعله يعيش ما عشته.

لكن شيئًا واحدًا غاب عنه...

أنه كان يهرب من فقر الماضي، بينما يسير بقدميه نحو فقرٍ أشد قسوة...

فقر القلب.

مرت الأيام سريعًا.

كبر سام بين والدين أغدقا عليه المال، ومنعاه من كل حرمان.

لكنهما نسيا أن الطفل لا يحتاج إلى المال وحده، بل يحتاج إلى حدودٍ، وإلى تربية، وإلى قدوة.

وفي تلك الأثناء...

كانت صحة مريم تتدهور بصمت.

سعالها يزداد.

وخطواتها تثقل.

وعيناها تخفت فيهما الحياة شيئًا فشيئًا.

ولم يلحظ أحد...

أن الشمعة التي أضاءت لهم الطريق طوال عمرها، كانت توشك أن تنطفئ.

الفصل السادس

الرحيل... وبداية الدَّين

مرّت الأيام على مريم ثقيلةً كأنها تحمل في كل صباح جزءًا جديدًا من عمرها إلى نهايته.

لم تعد تقوى على الوقوف طويلًا، وصارت أنفاسها تتقطع مع أقل مجهود، غير أن أحدًا في ذلك المنزل لم ينتبه إلى أن المرأة التي كانت يومًا عموده الصلب أوشكت على السقوط.

كانت تستيقظ قبل الجميع، تتوضأ، وتصلي الفجر، ثم تجلس في غرفتها الصغيرة مستندةً إلى الجدار، تحتضن صورةً قديمةً لعدنان وهو طفل يبتسم بين ذراعيها.

تمرر أصابعها المرتجفة على ملامحه، وتهمس بصوتٍ أثقله الحنين:

"كبرت يا ولدي... لكنك ما عدت ترى أمك."

ثم تطوي الصورة برفق، وتعيدها إلى صندوق الذكريات، كأنها تخشى أن يبهت ما تبقى لها من الماضي.

وفي صباحٍ شتوي بارد، استيقظ سام باكيًا.

حملته لمى وهي تزفر بضيق، وقالت:

- ليت في هذا البيت مربيةً، لأرتاح قليلًا.

سمعها عدنان فقال بهدوء:

- إن كنتِ بحاجة إلى مربية، فسأبحث عن واحدة.

هزّت رأسها نافيةً وقالت:

- لا... ما دامت والدتك موجودة، فلا داعي لذلك.

ابتسم عدنان ابتسامةً شاحبة، ثم غادر إلى عمله، غير مدرك أن ذلك الصباح سيحمل إليه الفقد الأكبر في حياته.

أما لمى، فنزلت إلى غرفة مريم لتطلب منها بعض الحاجات الخاصة بالطفل.

دفعت الباب كعادتها دون استئذان.

لكن شيئًا ما كان مختلفًا.

سكونٌ غريب يملأ الغرفة.

لا صوت سعال...

ولا همس دعاء...

ولا حركة توحي بأن أحدًا ما زال هناك.

تقدمت بخطوات مترددة.

كانت مريم ممددة على الأرض، وإحدى يديها فوق صدرها، بينما ارتسم على وجهها هدوءٌ لم تعرفه منذ سنوات طويلة.

نادتها بفتور:

- مريم...

لم يجبها الصمت إلا بصمته.

اقتربت أكثر، وهزّت كتفها برفق.

لكن الجسد بقي ساكنًا.

عندها تسلل الخوف إلى قلبها لأول مرة.

صرخت بأعلى صوتها:

- عدنان!

ثم تذكرت أنه غادر إلى عمله.

التقطت هاتفها، واتصلت به على عجل.

وصل عدنان يلهث، وكأن الطريق كله لم يكن يكفيه.

اندفع إلى الغرفة، وارتمى إلى جوار أمه.

أمسك يدها...

كانت باردة...

باردةً على نحوٍ لم يعرفه من قبل.

قال بصوتٍ اختلط فيه الرجاء بالانكسار:

- أمي...

أمي، افتحي عينيك...

أرجوكِ...

لكن مريم كانت قد رحلت إلى حيث لا ظلم، ولا قهر، ولا أبواب موصدة، ولا غرفٌ تحت السلالم.

أسند رأسه إلى صدرها، وانفجر بالبكاء كطفلٍ فقد العالم كله دفعةً واحدة.

كان يبكي لأول مرة منذ سنوات...

غير أن الدموع جاءت بعدما أصبح الندم بلا جدوى.

أحضر الطبيب إلى المنزل على عجل.

فحصها الطبيب بصمت، ثم تنهد قائلًا:

- رحمها الله... لقد فارقت الحياة منذ ساعات.

ساد الصمت المكان، حتى بدا وكأنه ينعى معها سنواتٍ من الصبر والعطاء.

أما لمى، فاكتفت بالنظر إلى الجثمان، ثم قالت ببرود:

- لقد كانت كبيرةً في السن... وهذا أمر طبيعي.

رفع عدنان رأسه إليها.

كانت عيناه حمراوين من شدة البكاء.

ظل ينظر إليها طويلًا، دون أن ينطق بكلمة.

وفي تلك اللحظة، شعر للمرة الأولى أن بينهما هوةً لا يمكن أن يجسرها الزمن.

بعد انتهاء مراسم الدفن، عاد إلى المنزل مثقلًا بما لا تستطيع الكلمات حمله.

توجه مباشرةً إلى غرفة أمه.

فتح الباب ببطء، فاستقبله صمتٌ موجع، ورائحةٌ ما زالت تحتفظ بوجودها، كأنها ترفض الرحيل.

جلس على الأرض.

وقعت عيناه على صندوقٍ خشبي صغير في أحد الأركان.

فتحه بحذر.

وجد حذاءه الصغير.

وأول حقيبةٍ مدرسية حملها إلى المدرسة.

وشهادات تفوقه.

وصورًا قديمةً من طفولته، كانت أمه تحتفظ بها كما تحتفظ الأرواح بأغلى ذكرياتها.

وفي أسفل الصندوق...

وجد ظرفًا قديمًا.

فتحه بيدين مرتجفتين.

كانت بداخله رسالة كتبتها مريم بخطٍ أرهقه المرض.

قرأ:

«إلى ولدي عدنان...

إن قرأت هذه الرسالة، فاعلم أنني رحلت وأنا أدعو لك، ولم أحمل في قلبي عليك ذرة كراهية.

سامحتك قبل أن تعتذر، لأن قلب الأم لا يعرف إلا المسامحة.

وإذا رزقك الله ولدًا، فأحسن إليه، ولكن لا تنسَ أن برَّ الوالدين لا يعوّضه شيء.

وإن قصّرت معي يومًا، فإني أسأل الله أن يغفر لك، لا أن يعاقبك.

أمك... مريم.»

ارتجفت يداه.

وانزلقت الرسالة من بين أصابعه.

وأخذ يبكي بحرقة، وهو يردد بصوتٍ متكسر:

- سامحيني يا أمي...

سامحيني...

لكن الجدران وحدها كانت تسمع اعترافًا جاء بعد فوات الأوان.

وفي تلك الليلة...

وقف طويلًا أمام قبرها.

كانت السماء ملبدةً بالغيوم، والريح تعصف بالأشجار، وكأن الكون كله يشاركه الحزن.

رفع يديه إلى السماء، وقال بصوتٍ خافت:

«اللهم اغفر لها كما ربتني صغيرًا، وارحمها كما أفنت عمرها من أجلي.»

ثم انحنى، وقبّل تراب القبر في صمت.

وغادر...

وقلبه يحمل أول أقساط الدَّين الذي بدأ يستيقظ داخله.

لكنه لم يكن يعلم...

أن الدَّين الحقيقي لم يبدأ بعد.

فالحياة كانت تخبئ له درسًا لن يتعلمه بالمواعظ، ولا بالكلمات...

بل بالألم ذاته.

الفصل السابع

حين بدأت عجلة الزمن تدور

لم يكن موت مريم نهاية الحكاية...

بل كان بداية الحساب.

مضت السنوات سريعًا، وكأن الزمن كان يطوي صفحاته في صمت، حتى كبر سام، وأصبح شابًا يافعًا، يعيش حياةً لم يعرف فيها الحرمان يومًا.

لبّى عدنان ولمى جميع طلباته.

كلما اشتهى شيئًا اشترياه له.

وكلما أخطأ، بحثا له عن عذر.

لم يتعلّم أن يسمع كلمة "لا"، ولم يعرف أن للحياة حدودًا لا يجوز تجاوزها.

وكان عدنان كلما حاول أن يشتد عليه، سارعت لمى إلى الدفاع عنه.

- لا يزال صغيرًا...
- دعه يعيش شبابه...
- لا تحرمه مما حُرمتَ منه.

وكان عدنان يصمت.

تمامًا...

كما صمت يومًا حين كانت أمه تُهان أمام عينيه.

مرت الأعوام، وتحول التدليل إلى طبع، والطبع إلى شخصية.

أصبح سام لا يعود إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل.

يهدر أمواله في السهرات، ويقضي نهاره نائمًا، ولا يعرف من الحياة سوى اللهو.

وكان كلما طلب مالًا، وجده بين يديه.

دون سؤال.

ودون حساب.

وفي إحدى الأمسيات...

جلس عدنان في شرفة المنزل يحتسي قهوته، وعيناه معلقتان بالفراغ.

جلست لمى إلى جواره.

تأملته قليلًا، ثم قالت:

- أراك شاردًا منذ أيام.

تنهد عدنان وقال:

- أفكر في سام.

سكت لحظة، ثم أردف:

- أشعر أننا أخطأنا في تربيته.

خفضت لمى بصرها.

ولأول مرة...

لم تجد ما تقوله.

قال عدنان بصوتٍ خافت:

- أردت أن أمنحه ما حُرمت منه... لكنني نسيت أن أمنحه ما هو أهم من المال.

ردت لمى محاولةً التخفيف عنه:

- سيعقل عندما يتزوج.

ابتسم عدنان ابتسامةً باهتة.

- ليس كل زواج يصنع رجلًا.

وفي تلك الليلة...

انتظرته لمى حتى تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

فُتح باب المنزل بهدوء.

دخل سام متسللًا، ظانًا أن الجميع نائم.

لكن صوت أمه أوقفه.

- سام...

التفت بضيق.

- ماذا هناك؟

- تعال، أريد أن أحدثك.

زفر بضجر، ثم جلس أمامها.

قالت بابتسامة:

- ما رأيك أن تتزوج؟

اختفت ملامح الضيق من وجهه.

- حقًا؟

- إن كانت هناك فتاة تحبها، فأخبرنا.

ابتسم وقال:

- نعم... أخت أحد أصدقائي.

- إذن سنذهب لخطبتها.

وقف سام، وقال بلا مبالاة:

- حسنًا... تصبحين على خير.

ثم تركها ودخل غرفته.

راقبته لمى حتى أغلق الباب.

كانت تظن أن الزواج سيغيره.

لكنها لم تكن تعلم...

أن الأخلاق التي لم تُغرس في الطفولة، يصعب أن تُزرع في الكبر.

تمت الخطبة سريعًا.

ثم جاء يوم الزواج.

كانت العروس تُدعى سمر.

فتاة جميلة، نشأت في بيتٍ ثري، ولم تعتد أن تُرفض لها رغبة.

وحين دخلت بيت زوجها لأول مرة...

تأملت أرجاءه بعينٍ ناقدة.

كانت ترى أن كل شيء يجب أن يكون على هواها.

وفي صباح اليوم التالي، اجتمع الجميع حول مائدة الإفطار.

وضعت لمى الطعام وهي تبتسم.

كانت تريد أن تترك انطباعًا جميلًا لدى زوجة ابنها.

جلست سمر.

تذوقت لقمة واحدة...

ثم وضعت الملعقة في الطبق.

وقالت ببرود:

- لا أستطيع أن آكل هذا.

ساد الصمت.

نظر إليها الجميع.

ثم قالت:

- هيا يا سام... لنفطر في أحد المطاعم.

أمسك سام مفاتيح سيارته، ونهض فورًا.

وقبل أن يخرج، التفت إلى أمه وقال:

- في المرة القادمة، لا تتعبي نفسك.

ثم خرج مع زوجته.

بقيت لمى واقفة أمام المائدة.

تنظر إلى الطعام الذي أعدته منذ الفجر.

وشعرت بشيءٍ غريب يخنق صدرها.

أما عدنان...

فلم ينظر إلى الطعام.

بل نظر إلى زوجته.

ثم إلى باب المنزل الذي خرج منه ابنه.

وفجأة...

عاد إليه مشهدٌ قديم.

رأى أمه مريم وهي تقف أمام المائدة نفسها...

تحمل الصحون بيديها المرتجفتين...

بعد أن رفض هو ولمى طعامها وخرجا إلى المطعم.

أغمض عينيه بقوة.

وكأن الزمن أعاد إليه المشهد نفسه...

لكن هذه المرة، كان هو يقف في مكان أمه.

همس لنفسه:

"يا الله... هل بدأت الديون تُسدَّد؟"

رفع رأسه، فرأى لمى تمسح دمعةً حاولت أن تخفيها.

فقال بصوتٍ مكسور:

- هل عرفتِ الآن... ماذا كانت تشعر به أمي؟

لم تستطع لمى الإجابة.

لأن الكلمات...

خانتها لأول مرة.

الفصل الثامن

حين اكتمل سداد الدَّين

مرت أشهر قليلة على زواج سام، لكن الزواج لم يغيّر منه شيئًا.

بل ازداد استهتارًا، وأصبح يقضي معظم وقته مع زوجته، تاركًا والديه يعيشان في صمتٍ ثقيل داخل المنزل الذي شيداه ليكون مأوى للأسرة.

وذات مساء، جلست سمر بجوار سام وهي تتأمل غرفتهما.

قالت وهي تعقد ذراعيها:

- هذه الغرفة أصبحت ضيقة.

نظر إليها مبتسمًا.

- وما الحل؟

قالت دون تردد:

- أعجبتني غرفة والديك... إنها أوسع.

ساد الصمت لحظة.

ثم قال سام ببساطة:

- إن كانت تعجبك، فهي لك.

ابتسمت في رضا، بينما كان القدر يبتسم ابتسامةً أخرى... لا يراها أحد.

في صباح اليوم التالي، كان عدنان ولمى يحتسيان الشاي في غرفتهما.

طرق سام الباب.

دخل مبتسمًا، وكأنه يحمل خبرًا سعيدًا.

قال:

- أبي... أمي... أريد أن أطلب منكما شيئًا.

ابتسمت لمى.

- تفضل يا بني.

قال بهدوء:

- سمر تحب هذه الغرفة، وأريد أن ننتقل إليها.

نظر إليه عدنان متعجبًا.

- وأين سنذهب نحن؟

أجاب سام وكأن الأمر لا يستحق التفكير:

- جهزت لكما غرفة أخرى.

نهض عدنان ببطء.

- أي غرفة؟

ابتسم سام، وأشار بيده إلى آخر الممر.

- الغرفة التي تحت الدرج.

تجمدت ملامح عدنان.

أما لمى...

فشحب وجهها فجأة.

في تلك اللحظة، عاد إليهما مشهدٌ مضى عليه سنوات.

الغرفة نفسها...

الباب نفسه...

والكلمات نفسها.

كانت مريم تقف هناك يومًا، تحمل صندوق ذكرياتها، بينما هما يراقبانها بصمت.

خفض عدنان رأسه.

وشعر بأن قلبه يُسحق تحت وطأة الذكرى.

أما لمى...

فلم تجد إلا أن تقول بصوتٍ مرتجف:

- حسنًا يا بني... كما تريد.

نظر إليها عدنان بدهشة.

همس:

- أتوافقين؟

أجابته وعيناها تفيضان بالدموع:

- ألم نفعل الشيء نفسه بأمك؟

لم يرد.

لأنه لم يجد جوابًا.

انتقلا إلى الغرفة الصغيرة.

دخلها عدنان ببطء.

مرر يده على الجدار البارد.

ثم جلس على الفراش المتواضع.

وقال بصوتٍ خافت:

- هنا كانت أمي تنام...

وهنا كانت تبكي...

وهنا ماتت وحدها.

أخفى وجهه بين كفيه، وانفجر باكيًا.

أما لمى...

فجلست في زاوية الغرفة.

ولأول مرة منذ سنوات...

شعرت أن الجدران تضيق عليها.

وأن كل كلمة قالتها لمريم تعود الآن، كأنها تُقال لها.

لم يتوقف الأمر عند الغرفة.

فبعد أيام، أصبحت سمر تأمر لمى بإعداد الطعام، وغسل الأواني، وتنظيف المنزل.

وكان سام يضيف:

- أسرعي... لا أحب أن أرى شيئًا غير مرتب.

كانت لمى تطيع بصمت.

وفي كل مرة تمسك فيها المكنسة...

كانت ترى أمامها وجه مريم.

وفي كل مرة تغسل الصحون...

كانت تسمع صوتها وهي تقول:

"لا أريد أن أكون سببًا في خلاف بينكما."

عندها فقط...

أدركت أن الكلمة الجارحة لا تموت، بل تبقى معلقة في ذاكرة من سمعها... حتى تعود يومًا إلى قائلها.

مرّت أسابيع.

وفي صباحٍ هادئ، دخل سام إلى الغرفة الصغيرة.

كان يحمل حقيبة ملابس.

وضعها أمام والديه.

قال عدنان مستغربًا:

- ما هذه؟

أجاب سام ببرود:

- ملابسكما.

قالت لمى:

- إلى أين سنذهب؟

ابتسم ابتسامةً باردة.

ثم قال:

- إلى دار المسنين.

ساد صمتٌ ثقيل.

قال عدنان وهو يحدق في ابنه:

- أتطردنا من بيتنا؟

أجاب سام بلا اكتراث:

- هناك من سيهتم بكما... وستجدان من هم في مثل سنكما.

ثم أضاف:

- هذا أفضل للجميع.

نظر عدنان إلى الأرض.

لم يحاول إقناعه.

ولم يغضب.

فقد شعر...

أن الزمن ينطق الآن بالحكم الذي كتبه بيده قبل سنوات.

وصلت السيارة إلى دار المسنين.

ترجل عدنان ببطء.

ساعد زوجته على النزول.

ثم رفع بصره إلى المبنى.

تنهد طويلًا.

وقال في نفسه:

"يا أمي... الآن فقط فهمت معنى الوحدة التي تركتك تعيشينها."

دخل المكان بخطواتٍ ثقيلة.

وفي كل زاوية...

كان يرى وجه أمه.

وفي كل أمٍ مسنة...

كان يرى مريم.

وفي كل دمعة...

كان يسمع صدى دعائها.

مرت الأيام بطيئة.

كان عدنان يجلس كل مساء بجوار النافذة، يراقب السيارات القادمة.

كلما توقفت سيارة أمام الدار...

نهض واقفًا.

ثم يعود إلى مكانه عندما يكتشف أنها ليست لابنه.

وكانت لمى تجلس إلى جواره.

لم تعد تلك المرأة المتكبرة التي دخلت بيت مريم.

لقد هزمها الندم.

ذات مساء قالت وهي تبكي:

- لو عاد بي الزمن... لقبلت يد مريم كل صباح.

أغمض عدنان عينيه.

وقال بصوتٍ متهدج:

- وأنا... لو عاد بي الزمن، لما سمحت لأحد أن يرفع صوته على أمي.

لكن الزمن...

لا يعود.

وفي ليلةٍ باردة، جلس عدنان وحده أمام النافذة.

رفع رأسه إلى السماء، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وهمس:

"يا أمي... كنت أظن أن برّ الوالدين كلمة تُقال، فإذا به عمرٌ كامل من المواقف. سامحيني... لقد تأخرت كثيرًا."

ثم أطرق رأسه.

وأدرك الحقيقة التي حاول الهرب منها طوال حياته...

أن بعض الديون لا يسقطها الاعتذار.

ولا يمحوها الندم.

لأنها لا تُسدَّد إلا حين يجعلنا الزمن نعيش الألم نفسه الذي صنعناه بغيرنا.

وهكذا...

أُغلقت دائرة الحكاية.

أبُوك نعمة لا تقدر، بما يقدمهُ نه لك

ولكن، بما بذلاه من عمرها كي تصل

إلى ما أنت عليه

ديون مُؤَجَلة

رواية

9 789778 123456